Ghassan Salamé
Appels d'empire: Ingérences et résistances à l'âge de la mondialisation
(Paris: Fayard, 1996).

دعوات إلى التسلط: التدخلات والمقاومات في زمن العولمة

ناصيف حتي

أستاذ العلاقات الدولية ـ الجامعة الأمريكية في القاهرة.

تشهد «مكتبة» الدراسات الدولية توسعاً ملحوظاً من حيث عدد الكتب والدراسات الصادرة في التسعينيات والتي تتناول عالم ما بعد الحرب الباردة، محاولةً البحث في بعض ملامح النظام العالمي الجديد الذي ما زال في طور التكون، أو جازمةً بوجود نظام عالمي جديد استقرت قواعده، وبالتالي تحاول فهم هذه القواعد والآليات الحاكمة للنظام. ضمن هذه الفورة الأكاديمية الطبيعية نتيجة التحول الثوروي الذي حصل في بداية العشرية الأخيرة للقرن العشرين، من نظام واضح المعالم والقواعد إلى حالة فوضوية يجري فيها تلمس الاتجاهات المستقبلية المحتملة ـ وهي عديدة، وفي ظل وضع يتسم بسيولة كبيرة في ما يتعلق بالقواعد القديمة والجديدة والمتجددة، يأتي كتاب غسان سلامة **دعوات إلى التسلط**، ليقدم إثراء كبيراً ومميزاً ضمن المحاولات الجارية ـ كما أشرنا ـ والتي يمكن إدراجها كلها تحت عنوان أو سؤال كبير هو: إلى أين نتجه؟

ـ ١ ـ

يبدأ غسان سلامة بطرح السؤال «الاستفزازي» الذي يحمله العنوان الرئيسي للكتاب والذي يمثل ظاهرة محبطة لمنظري «الجنوب» و«العالم الثالث» التقليديين، إلى أي مدرسة فكرية انتموا، ظاهرة الدعوات الصادرة من «الجنوب» والموجهة إلى «الشمال»، في ما أسميه عالمثالثية معكوسة تحمل دعوات لإعادة الاستثمار من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه. آخر هذه الدعوات نسمعها في جزر القمر، ومصدرها كما يقول أصحابها وضع اقتصادي لا يطاق والنظر إلى فرنسا كمخلص منتظر. إذن فمصدر هذه الدعوات أوضاع الدولة الفاشلة، وخصوصاً أن هذه الظاهرة انتشرت مع الدول الجديدة، بعد ما أفاقت من نشوة الاستقلال لتبدأ مرارة الاستمرار. والشمال مهتم بالطبع بالتدخل لإنقاذ الدول التي تتجه نحو الضياع، ليس بالضرورة لأسباب إنسانية، ولو أنه من غير الصعب تقديم التدخل تحت هذا العنوان، بل لأسباب مصلحية. ويرى الكاتب أن النظرية التي تقول إن الامبراطوريات تولد أيضاً من خلال الدعوة من الأطراف، وليس فقط من خلال التوسع في الوسط، صار لها حالياً ما يدعمها.

ويضع الكاتب التدخل «الجديد» في الإطار التاريخي لغياب المرجعيات التي كانت تحكم

النظام الدولي. فالتغيرات التي أصابت شرق أوروبا وآسيا والشرق الأوسط وأفريقيا، هزت التلاحم أو التماسك الذي كان قائماً، والتكتلات الإقليمية البازغة أفقدت خط التماس التقليدي شمال/جنوب أي معنى له. فلقد ساهمت العولمة مع ما رافقها من تغيرات اقتصادية هيكلية على الصعيدين الوطني والإقليمي في تفتيت الجنوب. ولم ينجُ مفهوم الأمن من هذه التغيرات، إذ أدى تخلخل الأحلاف وسقوطها إلى التركيز مجدداً على المفهوم القومي في الدولة.

ويستعرض الكاتب الأزمة الخطيرة التي تواجهها الدولة، وبخاصة الجديدة، ويناقش بشكل خاص ظاهرة ولادة الدول المُعَطَّلة التي حين جاءت بمثابة جواب لمشكلة وطنية، فإنها انتهت إلى خلق مشاكل ذات أوجه عديدة، منها الوطني، ومنها الاستراتيجي. ويشير غسان سلامة بالأحرى إلى ما يسميه الدولة المستحيلة مثل الصومال، والدولة الخاصة مثل هاييتي، ولا ينسى الكاتب أن يشير إلى أن من العناصر التي أدت إلى هذا الوضع، نهاية الحرب الباردة حيث كان الدعم الخارجي يسمح بالاستمرار الاصطناعي للدولة، بل إنه أحياناً كان يفرضه. ويرى الكاتب أن أطرافاً وأوضاعاً عديدة غير الدولة أو أحياناً مناهضة للدولة تستفيد من تغيب الدولة، مثل الاقتصاد غير الرسمي والعديد من المنظمات غير الحكومية والشركات، إذ يبرز نوع من إعادة التخصيص المتوحش لبعض الوظائف الأساسية للدولة مثل الأمن والجباية. ويعتبر الكاتب أن القوى الكبرى لا تملك الإمكانات المالية والعسكرية لتكون هي المستفيدة الوحيدة من هذا الوضع، لذلك تبدأ هذه القوى بالبحث عن معايير انتقائية للتدخل في الدول المتعبة أو المُعطَّلة.

فإذا كانت هذه هي حال الدولة في «الجنوب» المتوسع ليضم جزءاً كبيراً من الشرق سابقاً، فما هي حال النزاعات في عالم ما بعد الحرب الباردة؟ لقد سهل هذا الأخير تسوية بعض النزاعات المتكررة، لكنه أيقظ من جهة أخرى نزاعات كانت في ثبات، وخلق نزاعات جديدة من جهة ثالثة. كما أن نهاية الحرب الباردة غيرت من طبيعة النزاعات ذاتها، وكشفت في حالات كثيرة أسبابها الحقيقية. ويخلص الكاتب في هذا السياق إلى مقارنة تاريخية مفادها أن قيام الدولة الترابية (Etat territorial) منذ حوالى قرنين أو ثلاثة ترافق مع قيام الحروب بين الدول، مفسراً هذه الحروب ومغذيها في الوقت ذاته. وما نراه الآن من انفراط الدولة ذاتها، وانتشار الحروب الأهلية، هما عمليتان تغذي إحداهما الأخرى وتدعمها.

أمام هذه الأوضاع، يأخذ التدخل الغربي شكلاً ثالثاً مختلفاً عن الحرب التقليدية والنووية، ويزداد هامش المناورة أمام القوى الكبرى للتدخل بحيث تستطيع أن تصبح أكثر انتقائية في «التورط» وفي اختيار أهدافها التدخلية.

- ٢ -

وفي ما يتعلق بالتدخل «الإنساني»، يعلق الكاتب على أهمية «الصورة» أو الإعلام في تحديد المعيار الرئيسي للتدخل، حيث يختلط أيضاً في نهاية الأمر الإنساني بالمصلحة القومية للدولة المتدخلة. ويأخذنا غسان سلامة إلى مفارقة مثيرة حيث يظهر «الإنسان الغربي» كنقيض ولكن كذلك كمكمل للقومي الشوفيني في الغرب. فالغربيون يجتازون الحدود ويعتدون على السيادة لمساعدة الناس، في الوقت الذي يعززون فيه حدود بلادهم أمام الآخر، ويخلص إلى أن الإنسان بسبب نجاحاته عاد ليحاور الدولة لدعم سياسات معينة لها. وفي تناوله للأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية يرى غسان سلامة أن المنظمة الأممية تواجه

قضيتين أساسيتين، هما إعادة الحيوية لها وتوسيع التمثيل العالمي. ويعتبر أنها معرضة للتهميش، وهذا ما هو حاصل فعلياً بسبب سياسات القوى الكبرى حيث توفر المنظمة الغطاء المطلوب لسياسات الأمن الوطنية، العائدة بقوة للدول. ويستعرض غسان سلامة دور المنظمات الإقليمية، ليخلص إلى القول إن الإقليمية الأمنية تواجه مصاعب كبيرة في عصر العولمة، أساسها صعوبة تأقلم هذه المنظمات مع الأوضاع الجديدة.

ويطرح الكاتب موضوع نظام القيم الوظيفية التي أطلقتها الأمم المتحدة، والتي تحاول نشر القيم الاجتماعية للدول باعتبارها قيماً عالمية حاكمة، وتعدها للتصدير إلى كافة أطراف العالم، ولتشكيل معايير عالمية موحدة تصلح لقياس التطور العالمي. وتواجه تظاهرة القيم مقاومة عنيفة من الأطراف التي تخاف على قيمها وهويتها، وتعتبر هذه التظاهرة الأممية بمثابة أداة غربية للسيطرة الثقافية على المجتمعات المناوئة.

وهكذا نجد أمامنا اللوحة التالية: ازدياد في الدعوات للامبراطورية وللانصهار في النظام الشامل للغرب، مقابل تحول قومية الأمس إلى شوفينية ضيقة مزمنة تؤكد على الاستقلالية الثقافية والانغلاق على الذات باسم الأصالة الدينية.

فمقاومة العولمة في الجنوب دفعت إلى إحياء خطاب متدين يأخذ أشكالاً مختلفة. فهو مثلاً إسلامي في الوطن العربي، وهندوسي في الهند. وترى هذه المقاومات في نظرية «صدام الحضارات»، موقفاً دفاعياً من الغرب الذي يحاول عبر تظاهرة القيم الأممية، ليس مجرد فرض قيمه، بل إيقاف هذا الرفض المتزايد للأفكار والأنماط والقيم التي فرضها الغرب خلال قرون على العالم.

وعلى صعيد آخر، يرى الكاتب أن نهاية الحرب الباردة أسقطت العناوين الاستراتيجية التي كانت تتخطى قدرة الدولة على التدخل، وأعادت من جديد قومية السياسات الدفاعية والأمنية ووضعت التدخل في إطار مصلحي وقيمي مختلف. ويستعرض الكاتب بعد ذلك سياسات القوى الكبرى في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، ولعل خير ما يدل على الدور الأمريكي الجديد ما يصفه الكاتب بالشرطي الانتقائي، إذ تحررت الولايات المتحدة من عقدة فييتنام، كما أنها تحررت من موجبات الثنائية القطبية ونظام المواجهة الاستراتيجية، ولم تعد مصالحها ومسؤولياتها مترادفة كما كانت الحال خلال الحرب الباردة، مما سمح لواشنطن ببلورة قواعد تعتبر بمثابة معايير تحدد التدخل من عدمه. ومثل هذا الوضع يجعل حلفاء أمريكا وشركاءها في حيرة من أمرهم في كثير من الأحيان. ثم يتناول غسان سلامة تطورات السياسات الخارجية والدفاعية للقوى الأوروبية الرئيسية الثلاث: فرنسا وبريطانيا وألمانيا، وهي سياسات ما زالت مترددة وقلقة ولم تستقر بعد في عالم متغير وفي فضاء أوروبي ليس بعيداً عن أوروبا ما قبل عام ١٩٤٥. وفي ظل هذه الأوضاع، يصبح من الصعب مع وجود استراتيجيات مختلفة بلورة سياسة دفاعية مشتركة لأوروبا. والتساؤلات العديدة المماثلة مطروحة بدورها على روسيا التي عادت إلى مكانة القوة الإقليمية الباحثة عن دور تملك إمكاناته. فعلى صعيد الجوار الجغرافي المباشر، فإنها ربما تحاول إعادة بناء منطقة نفوذ لها، أكثر مما تحاول إعادة بناء امبراطورية، فالإمكانات الروسية متواضعة جداً ولا يمكن أن تخدم أهدافاً كبيرة.

ـ ٣ ـ

وأخيراً في عالم مليء بعدم التوازن وبالتناقضات المتفجرة، يطرح غسان سلامة

قضية المجتمع الدولي ويستشهد بالقول: «ان أول صفات المجتمع الدولي، عدم وجوده». لكن الخصوصيات القائمة على الهويات القلقة والثائرة ترفض مفهوم المجتمع الدولي وتعتبره غطاء أو أداة لسياسات القوى الكبرى، ويزداد الاضطراب مع تسارع العولمة التي تؤدي إلى تأجيج المزيد من نزاعات الهوية، وبالتالي تعطل قيام المجتمع الدولي بوظائفه الأساسية التي لبها حماية الإنسان وقيمه الأساسية». والمفارقة، كما يخلص غسان سلامة إلى مقولة، هي أنه في حين يتأخر قيام المجتمع الدولي، يزداد عدد الجماعات العرقية والأصلية وقوتها على نحو يزيد من الفوضى العالمية.

إن هناك ثلاثة أمور رئيسية تميز دراسة غسان سلامة، **أولها** وضع يده على الجدلية الأساسية المحركة للديناميات الدولية، في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وهي جدلية العولمة والقبلية، وذلك في إطار معالجة شاملة. **وثانيها** اللجوء إلى مقترب يقوم على صياغة الأسئلة وطرح التساؤلات، بدلاً من محاولة تقديم أجوبة جاهزة في مرحلة رمادية جداً في العلاقات الدولية. **وثالثها** أسلوب ممتع وشيق في معالجة موضوع مقلق، وعادة ما يعالج بأسلوب جاف □

صدر حديثاً

الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة
أو
نقد علم الكلام ضداً على الترسيم الأيديولوجي للعقيدة ودفاعاً عن العلم وحرية الاختيار في الفكر والعقل

إشراف د. محمد عابد الجابري

يرى الجابري في مقدمته التحليلية أن الشاغل الذي كان يؤطر تفكير ابن رشد في هذا الكتاب، كما في **فصل المقال**، لم يكن مجرد شاغل كلامي نظري، بل هو أساساً شاغل اجتماعي سياسي يتمثل في الأضرار التي نجمت عما قامت به الفرق الكلامية من التصريح للجمهور بتأويلاتها وما نتج من ذلك من شنآن وتباغض وحروب، وهذا ما يمكن التعبير عنه بلغتنا المعاصرة: بموضوع قضية العلاقة بين الدين والمجتمع ومناقشتها مناقشة علمية عميقة أقرب إلى الفكر الحديث، مما يجعل من ابن رشد فيلسوفاً متميزاً من حيث قيامه بإصلاح ديني فلسفي وعلمي في آن واحد، وتصديه للدفاع عن العلم وحرية الإرادة لقناعته بالتطابق بين ما يستفاد من ظاهر الشرع وما يقرره العلم الأرسطي والنظام الفلسفي المشيد عليه.

٢١٧ صفحة

الثمن: ٨ دولارات